سريلانكا
أرض الصدفة السعيدة

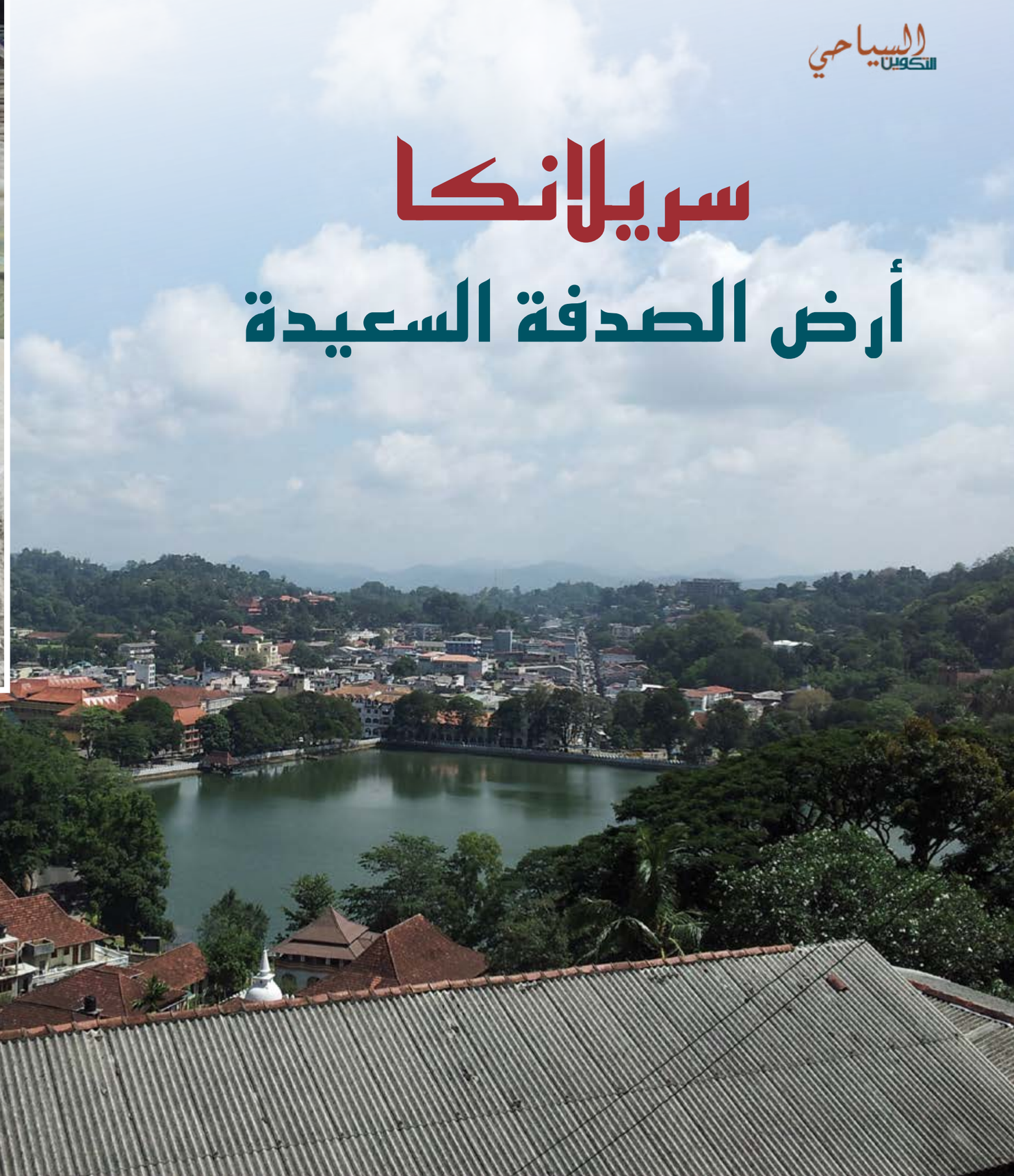

وضعت في مفكرة الارتحال الصيفي أكثر من بلاد، لأكمل الرقم عشرين في سلسلة البلدان التي زرتها في حياتي، أغلبها بحكم العمل الصحفي، محاذرا تكرار الأماكن قدر الإمكان (والإمكانية) حيث لم أزر منذ سنوات مدينة جديدة.

وإذ كانت إجراءات التأشيرة الأوروبية تضربني بشدة تعقيداتها، والمراجعات المستمرة في صيف قائظ أمام سفارات تتعامل معنا على أن كل طالب تأشيرة منّا ليس إلا (مسجل خطر) ينبغي التعامل معه بأقصى قدر من الحذر..

وإذ كانت الأمور في السفارات الأوروبية كذلك فإن سريلانكا كانت ضمن خيارات أقرب للنفس: اكتشاف مكان جديد، والصور القادمة منها محفزة، والسابقون العمانيون إليها ينصحون بالسفر باتجاهها.

محمد بن سيف الرحبي

تذكرت ما قاله الشاعر المصري محمود سامي البارودي الذي نفي إليها في أواخر القرن التاسع عشر كما أخبرتنا المناهج الدراسية ذلك، إذ يقول:

كفى بمقامي في سرنديب غربة

نزعت بها عنـي ثياب العلائـقِ

لا تحتاج هذه البلاد إلى (علائق) التأشيرة، بمجرد الوصول إلى المطار يمكن الحصول عليها بعشرة ريالات عمانية فقط..

وكانت رحلتي إليها موصولة بجملة مفاجآت استحقت عليها لقب سرنديب كما أطلق عليها الرحالة العرب القدماء، وتعني الصدفة السعيدة، وبالمختصر المفيد يمكنني القول إنها أبهرتني.

لم أكن وحدي في الطائرة السيلانية المتجهة منتصف ليل صيفي حارق، بل مجموعة كبيرة من العمانيين، بما يمكن اعتبارها أنها مستقبل السياحة العمانية باتجاه الخارج، وفي ذلك مؤشرات، بينها أن الأماكن المشابهة وصلت إلى درجة التشبع، تايلند وماليزيا وسنغافورة، واكتظت بالبشر القادمين من عمان وبقية بلدان الخليج العربي، وما ينقص سري لانكا عن غيرها من تلك البلدان يمكن أن يكون عنصرا إضافيا لترويج سياحة العائلة، فأرض الصدفة السعيدة بها كل مقومات الجمال.. عدا تجارة اللحم الأبيض، وما يصاحبها من حياة ليل تفيض أكثر عن قدرة بعض العائلات على احتمال المشاهد، وسري لانكا توفر خيارا رائعا للأسر العمانية.

ست ليال قضيتها في أربعة فنادق في اربع مدن سريلانكية، وفي كل فندق كانت العائلات العمانية موجودة كشقيقاتها الخليجيات..وكنت أحسبني من القلائل الذين يذهبون إلى هذه البلاد التي يمكن القول إنها منسية سائحا، لكن المشاهد المتتابعة تدفعني لاعتبار أرض الصدفة السعيدة حاضرة في المشهد السياحي

الخارجي للسنوات المقبلة، فتلك البلاد نفضت عن كاهلها ثقل حرب «نمور التاميل» وبدأت في اكتشاف نفسها، يعززها حضور إنساني راق لأهلها الذين لا يشعرونك أنك غريب، بل الانحناءة حاضرة دائما، والابتسامة لا تغادر الوجه، فلا توتر أو تشنج أو استغفال في التعامل اليومي مع السائح.

وفي البشر الذين يخدمونك حفاة لفرط الاحترام.. لا تكاد تسمع أصواتهم، بتهذيب عساه يبقى دون أن تزحف عليه «رأسمالية» السياحة في القادم من أعوام.

سرت إليها بصورة نمطية تعكس بلدان شبه القارة الهندية، حيث عرّفتنا سري لانكا على نماذج من العمالة الرخيصة أغلبها ضمن عاملات المنازل، وإشكاليات الاستجلاب والهروب.

لذلك كانت أسئلة البعض تتكاثر عن سر اختيار المكان للسفر إليه، وقد بسط العالم كفيه مرحّبا، لكن المحفزات تتكاثر، هنا وهناك عرفت عن راجعين للتو من زيارتها، وآخرين يستعدون للسفر إلى أرض.. سرنديب.

كعادة المدن التي تبدأ في نسج علاقة مع السياحة فإن الخدمات لا تكون كما يفترض، سرنديب بلاد أشبه بحديقة مترامية الأطراف، تمرّ على السهول والجبال والمنخفضات فتشبعها اخضرارا حتى يحاصرك اللون الأخضر أينما يمّمت وجهك، فواكه لا تعرف أسماءها تزحف عليك من الأرض أو من قمم الأشجار المتجاورة بمدّ البصر.. وبامتداد طريقك الزاحف بين مدينة إلى أخرى.

يشير السائق إلى اسم بعد آخر، وتحاول أن تتذكر كل هذه الأعداد، كما تحاول تجربة بعض مذاقاتها، منها ما خبرته في المحلات الكبرى التي جاءت بفواكه وخضروات من جميع أنحاء العالم، ومنها ما تراه على قمم الثمرة الضخمة نائمة على جذع أمها!

بلاد قد لا تجد فيها بقعة لا تتضلل بورقة من اللون الأخضر..

تتوزع المدن بمعابدها، بينها ما تسكنه أغلبية بوذية فتزحف تماثيل بوذا على كل اتجاه، وأخرى مسيحية فيرتفع الصليب حتى في المطاعم، وهناك أغلبية إسلامية كأنك في قرية مسلمة ترى فيها المساجد والمحجبات واللحى..

استمعت إلى صوت الأذان.. ومعابد بوذا متكاثرة هناك وهناك، لكنه التسامح الذي عليه شعب البلاد، سألني السائق البوذي عن الصلاة، وأجبته معقبا بسؤال مضاد له عن صلاتهم، أنكر وجود صلاة لديهم لأن بوذا ليس إلها، وإنما إنسان، فاجأني قوله، حسبت أنهم رفعوه إلى مستوى إله يعبدونه، لكن تلك التمتمات التي يرددها كلما زرنا معبدا بوذيا كانت دلالة احترام وتقدير، وليست صلاة.

يشكّل المسلمون أقل من ١٠ بالمائة من عدد سكان سريلانكا، يتقسمون لقب الأقلّية مع الهندوس والمسيحية مع غالبية بوذية، ويبدو أن الإسلام وصلها مع المغامرين العرب، من التجّار والدعاة، وقد سمّوها سرنديب عندما وجدوا أن هذه الجزيرة قريبة من خط تجارتهم، فوجدوها أرض الصدفة السعيدة لما تتوفر عليه من مقومات طبيعية مدهشة، وقد كانت سفن العرب تجوب السواحل حاملة الأخشاب والحرير والتوابل والعطور باعتبارها واحدة من أقدم المحطات التجارية التي عرفها العرب والصينيون، لكن مع تحولات السيادة على البحار تناوب على استعمار سريلانكا، وابتداء من القرن السادس عشر للميلاد، البرتغاليون والهولنديون والإنجليز الذين فازوا بها بداية القرن الثامن عشر ليلحقوها بالتاج البريطاني، وبدت لهم مصالحهم أكثر في تشجيع الأهالي على زراعة أشجار يحتاجونها خاصة أشجار المطاط وجوز الهند والشاي بغرض الانتفاع الاقتصادي إلى أقصى حد من موارد هذه الجزيرة.

وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية سعت سيلان إلى استقلالها لكنها بقيت عضوا في الكومنولث البريطاني، وبقيت باسم سيلان حتى عام ١٩٧٢ حين استعادت اسمها السنهالي القديم لتكون سريلانكا، وتعني باللغة السنهالية النقطة المقدسة أو البقعة المقدسة، والسنهال هم أكبر وأقدم شعب يقطن سريلانكا ويعتنق البوذية.

في كولومبو حجزنا موعدا مع المطر، وكانت السماء تمطر مع هواء شديد، لكن الناس يتصرفون كأنه لا شيء غير عادي يستوجب اللوذ بحوائط المنازل هربا من المطر والرياح الضاربة بقوة.. على الشاطئ محلات خشبية صغيرة أعطت حياة للمكان، تقاوم الهواء الصاخب، خاصة بعد غروب الشمس حتى يكاد يقتلع الأخشاب بعيدا عن تماسكها..

جلنا قليلا في كولومبو، البحيرة التي اجتمع عشاق فيها، والمعبد يتوسط المكان كأيقونة مقدسة، بينما الأشجار تصيخ السمع إلى أصوات المحبين يتبادلون أمنياتهم ونبضاتهم، في تلك المفردات سبحت نحو الهدوء الإنساني يلقي بنسائمه على الطبيعة فيتحد معها في جمال ليس من السهل تجاوزه إلى بقعة أخرى.

إلى نيورليا كان الصعود كأنه باتجاه السماء، كلما قلت هذه آخر (صعدة) بدت أخريات كثيرة بعدها، حتى لامسنا السحاب ولازلنا نصعد الساعات واحدة إثر أخرى، على الطريق كانت التجارب حاضرة، تناول ثمار الأناناس الطازجة مع خلطة الفلفل، بلاد معجونة بالفلفل الحار، وبجانبي أشجار الترمبوتان مثقلة بفاكهتها، ما أرخصها هنا، وما أغلاها في بلادنا، وثمرة الجانك فروت تتدلى بوحشية فريدة، قال البائع وهو يحمل حبّة ضخمة بين يديه إنها ليست الأكبر كما تظن أيها السائح الغافل عن هذه البلاد..

كانت المحلات التجارية تتبع الدوام الرسمي في فتح أبوابها، من الثامنة صباحا وحتى الخامسة عصرا، وكانت عربات «التك تك» أكثر من السيارات، وكانت المفاجآت تتوالى ونحن نجوب شوارع سريلانكا، مصنع متخصص في منتجاته، مكونة من فضلات الفيلة، فتبدو على أكثر من شكل، بما يكفي للإصابة بالدهشة، تعظيمهم للفيل، وما يخرج منه، وقد أخذنا السائق في جولته إلى النهر حيث تغسل الفيلة أجسادها الضخمة من الماء المنساب جمالا، حتى الفيل الصغير كان جميلا بما يكفي لنسيان ضخامته وهو يتحرك مستمتعا ببرودة المياه !

اقتربنا من حقول الشاي كثيرا، وزرنا مصنعه لنتعرف على هذا السائل الجميل عن قرب، بدءا من حاصديه وهم يحملون (الجواني) على ظهورهم يلقون فيها الأوراق الخضراء تتكاثر لتملأها واحدة بعد أخرى، ومن كل خمسة كيلوجرامات يستخرج كيلوجرام واحد فقط، وهناك تتقسم الألوان والمستويات، شاي أحمر وأسود، نوع للعامّة، وآخر للخاصة، واحد للصباح الإنجليزي والثاني لما بعد الظهيرة.

تعد سريلانكا ثاني دول العالم المصدرة

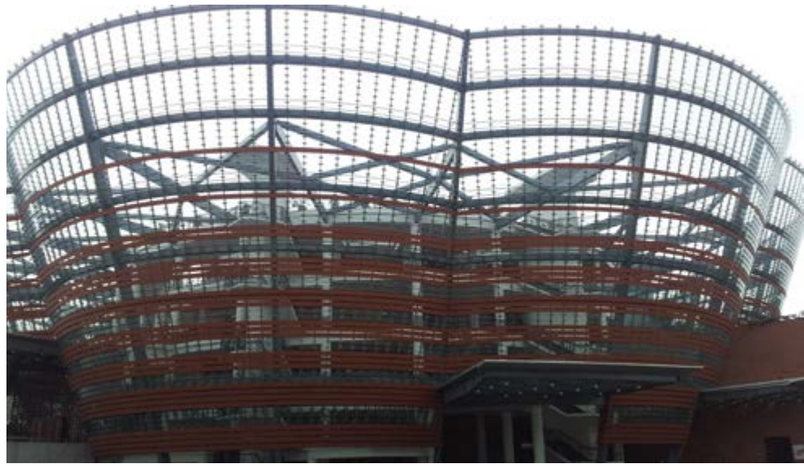

للشاي، بقيمة وصلت عام ٢٠٠٧ مليار دولار أمريكي، وتشتريه شركات خلط الشاي بأسعار مرتفعة، علما أن مستوياته متفاوتة القيمة بشكل كبير، حتى في المصنع الذي زرناه، فالشاي هو «نفط» سريلانكا، وعرفت بجودة شايها والفضل في زراعته يعود إلى قبطان أنجليزي يدعى جيمس هيلر عندما أدخل زراعته عام ١٨٣٩، حيث جاء بشجيرات الشاي من الصين، ووجد أن نورليا المكان المناسب لزراعة شجرته حيث ترتفع ثلاثة آلاف متر عن سطح البحر، ولا يتجاوز ارتفاع شجرة الشاي أكثر من متر واحد، دائمة الخضرة، ويصل عمرها إلى ثمانين سنة، ويعمل المزارعون على تقليم فروعها وتشذيبها كل ثلاث سنوت لتنبت غصونا جديدة، بينما تحمل النساء السلال على ظهورهن خلال قطف أوراقه الخضراء.

ومستويات الشاي تحددها ارتفاعات حقوله، فكلما ارتفع أكثر ازدادت جودته، ويشير مرافقنا إلى أن السنهال، وهم السكان الأصليون لسريلانكا رفضوا العمل في مزارع الشاي تحت وصاية الإنجليز الذين أحضروا العمال من جنوب الهند، فتوافد الهندوس التاميل إلى الجزيرة مما أبقى ملكية المزارع للحكومة التي تديرها وتتصرف بناتجها.

ولأن دعم السياحة إحساس وطني لمسته لدى السائق / المرافق فقد أخذنا لمصنع الشاي، لنتجول.. ثم نشتري، وهكذا كان دخولنا لمصنع لابوكاليه، يعمل فيه أكثر من الفي عامل، نصفهم من قاطفات الشاي، رأينا كيف تتحول الأكياس الضخمة إلى ناتج يقل عن خمس المقطوف من الأشجار، وتشحن الخلاصة إلى العاصمة حيث تعمل هناك شركات إنجليزية ويابانية تعرف كيف تضيف النكهات.

المدينة تبدو خارج سياق البلاد، تبدو على المكان آثار الاستعمارين الهولندي والإنجليزي، ولأننا وصلنا ليلا فقد أجبرني البرد القارس على اللجوء إلى الغرفة مبكرا، مستمتعا بالمنظر البديع عبر النافذة، وبالقرود التي تطل عبرها.

اقترح علينا السائق أن نذهب إلى الحديقة الملكية، وكانت الموافقة مرهونة باستئجار سيارة أخرى قادرة على اجتياز الهضاب والمرتفعات، وقبل أن تشرق الشمس كنا نغالب البرد لنمضي مسافات طويلة ذارعين الطريق صعودا وصولا إلى الحديقة المترامية حتى نهاية المرتفع الجبلي، هناك قيل لنا إنها تسمى نهاية العالم، على تلك الحواف بدا حقا للساكنين قديما هناك أنها نهاية العالم بالنسبة لهم، حيث المنخفض هائل والهواء البارد يكاد يطيح بالسياح الذين ساروا، كما سرنا، مسافات طويلة امتدت ما يقارب عشرة كيلومترات، من حيث تركتنا السيارة، ووصولا إلى هذه الحافة، نهاية العالم.

بعد نيورليا كان جدول الرحلة يشير إلى مدينة كاندي، بحثت في تاريخها لأجد في أجندتها أنها كانت منفى للزعيم المصري أحمد عرابي عندما نفاه الإنجليز إلى جزيرة سيلا بعد فشل ثورته عام ١٨٨٢ ليقيم فيها حتى عام ١٩٠١، ويوجد متحف صغير افتتح عام ١٩٨٣ يضم تمثالا كبيرا لعرابي مع صور ولوحات متعددة تظهر مراحل حياته، ومن كانوا منفيين في تلك الفترة، الشاعر الكبير محمود سامي البارودي وعلي باشا فهمي، ونقشت على لوحة رخامية أبيات شعرية كتبها البارودي في كاندي:

أبيت عليلا في سرنديب ساهرا
أعالج ما ألقاه من لوعتي وحدي
قد طال شوقي إلى الديار ولكن
أين من معي من أقام بكاندي

ولأن جدول الرحلة بيد السائق، أو المرشد السياحي لبلاده، فإننا وجدنا أنفسنا في مزرعة للتوابل، قال إنها الحديقة الملكية، وتمتد ٨٥ هكتارا، فيها استعدت روائح البهارات والأشجار التي نسمع عنها، المستخدم منها للطعام أو للعلاج، الفانيلا والهال وجوز الطيب

والقرفة والزنجبيل والفلفل الأسود والكاكاو والموز والمانجو والافوكادو.. وما لا يحصى من أنواع كررها على مسامعنا موظف قادنا بعد جولة بين الأشجار والنباتات إلى محل يبيع منتجات مصدرها الحديقة.. وبعد كل تلك الجولة الجميلة هل يمكن مقاومة الشراء، أو على الأقل، عربون شكر للموظف، وللسائق.

كاندي ثاني مدن سريلانكا، وأقيمت وسط غابة طبيعية، وهي معروفة بزراعة الأرز، وكان السائق يسير بنا بسرعة على طريق ضيق لا يكاد يتسع للسيارة القادمة من الاتجاه الآخر، وحين ألقينا بالرحال في كاندي كان قراره أيضا بأن نزور معبدها الكبير، زودني بوردة الأوركيد، ذات الدلالة، حيث دخلت معه المعبد في طابور طويل، لنقف أمام تاج عملاق من الذهب، تبيّن لي لاحقا أنها انعكاس مرآة للتاج الأصلي الموجود في الأسفل، حفظا له وصونا من كل مكروه، بني المعبد عام ١٥٩٣ في عهد الملك فيلا مادرما سوريا، وبعد جولة، أدهشتني بالاكتشاف المثير لعادات شعوب، إلا أن المساء كانت له دهشة أخرى، عرض فلوكلوري يسير فيه العارضون على الجمر.

وفي كل زاوية هناك دهشة، حديقة الزهور حيث قيل إن بها نحو عشرة آلاف نوع من الأشجار والزهور، وأكثر من مائة نوع من أزهار الأوركيد، عدا أشجار البامبو وجوز الهند، وغيرها مما إذا لم يتناول ثماره فإنه يتم التداوي بها.

أشار السائق إلى كلمة بنتوته، وتعني ابن بطوطة، منطقة وصل إليه الرحالة العربي المعروف، وكتب عنها ضمن رحلاته حيث كان اسمها سرنديب، لكن الاستعمار الإنجليزي أطلق عليها اسم سيلان، ثم وصولا إلى اسمها الحالي سريلانكا، لكنهم بقوا أوفياء لابن بطوطة لتحمل إحدى المناطق اسمه، وتبعد عن العاصمة كولومبو نحو ٦٠ كيلومترًا، أشار مرافقنا إلى أن الأوروبيين يفضّلونها أكثر، فشواطئها توفّر لهم رياضة التزلّج على الماء.. بين أشجار وأنهار وزهور ونباتات، ومياه متدفقة، انتهت الرحلة إلى سريلانكا، اكتشاف جميل لبلد لم نكن نراه كما يستحق، غادرتها.. لكنها لم تغادرني.